رسالة عامة للحبر الأعظم بندكتس السادس عشر

خُلِّصنا في الرجاء
حول الرجاء المسيحي

إعداد الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

مع شهر تشرين الثاني تنتهي السنة الطقسية لتذكّرنا بالأمور الأخيريّة: الموت والدينونة والحياة الابدية. وما عيد جميع القدّيسين وتذكار الموتى المؤمنين سوى تعبير عن رجائنا المسيحيّ وعن إيماننا بشركة القدّيسين. لذلك نقدّم في هذا المقال بعض ما جاء في رسالة البابا بندكتس السادس عشر عن الرجاء المسيحيّ، وفيها تعليم حول هذه الامور الاخيريّة والتي يجب أن تساهم في توجيه حياتنا في الحاضر. صدرت الرسالة في ٣٠ تشرين الثاني ٢٠٠٧.

عنوان هذه الرسالة آية من الرسالة إلى أهل روما «خُلّصنا في الرجاء» (٨: ١٤). في المقدّمة يؤكّد قداسة البابا على أنّ الإيمان المسيحي يتطلّب الرجاء مستشهداً بالعهد الجديد حيث كلمة رجاء توازي كلمة إيمان (عبرانيين ١٠: ٢٢ و٢٣؛ ١بطرس ٣: ١٥). فالمسيحي كان بلا رجاء قبل لقائه بالمسيح والإيمان به (افسس ٢: ١٢). هذا يعني أنّ هناك ما يميّز المسحيين، فالحياة بالنسبة للمؤمن لا تنتهي في العدم والمستقبل الإيجابي يعطي معنى للحياة في الحاضر: «من لديه رجاء يعيش بطريقة مميزة، إذ حياة جديدة أُعطيت له» (٢).

يعطي قداسة البابا مثلاً حيّاً للرجاء المسيحي في حياة قدّيسة من عصرنا، لفهم معنى اللقاء بهذا الإله للمرّة الأولى وفي الحقيقة: جوزفين بخيتا التي أعلن قداستها البابا يوحنا بولس الثاني. وُلدت في دارفور في السودان حوالي سنة ١٨٦٩. في عمر التسع سنين اختطفها تجّار العبيد وضربوها ودمّموها وباعوها خمس مرات في اسواق النخاسة السودانية؛ وأخيراً كعبدة، وجدت ذاتها في خدمة أمّ عماد في الجيش السوداني وزوجته؛ وكانت كلّ يوم تُضرب حتى الدمّ. فنتج عن ذلك ١٤٤ جرحاً رافقوها مدى حياتها. أخيراً سنة ١٨٨٢، بيعت إلى تاجر إيطالي سلّمها إلى القنصل الإيطالي كاليستو لنياني الذي، بسبب تقدّم المهديّين، عاد إلى إيطاليا. هناك بعد أن كانت ملكاً لأسياد مرعبين حقّاً، عرفت بخيتا «سيّداً» مغايرا تماماً. في لغة أهل البندقية، وكانت قد تعلّمتها، أصبحت تنادي «سيّدي» الإله الحيّ، إله يسوع المسيح... أصبحت تعرف أن هناك سيّداً يعلو كلّ الأسياد، سيّد السادة. وأنّ هذا السيّد صالح، لا بل الصلاح بالذات. وتعلّمت أنّ هذا السيّد يعرفها هي أيضاً وأنّه خلقها هي أيضاً – وأكثر من ذلك أنّه يحبّها... وأكثر من ذلك، كان هذا السيّد قد واجه مصير الضرب

وهو الآن ينتظرها «عن يمين الآب». مذّاك صار لديها رجاء. ليس فقط الأمل الصغير في أن تجد أسياداً أقلّ قسوة، لكن الرجاء الكبير: أنا محبوبة إلى الأبد، مهما حدث لي فهذا الحبّ ينتظرني. هكذا حياتي أصبحت حلوة. بمعرفة هذا الرجاء قد «افتُديت»... في التاسع من كانون الثاني ١٨٩٠، قبلت العماد والتثبيت وتناولت للمرة الأولى من يد بطريرك البندقية. في الثامن من كانون الأول ١٨٩٦، في فيرونا، أعلنت نذورها في رهبنة الأخوات الكانوسيان، ومذّاك، بالإضافة إلى عملها في السكرستيا وفي بوّابة الدير، بدأت تعدو إلى الرسالة: فالحرية التي تمتّعت بها بلقائها بإله يسوع المسيح، شعرت بواجب نشرها ونقلها إلى الآخرين (٣).

معنى الرجاء المبني على الإيمان في العهد الجديد وفي الكنيسة الأولى (٤ -٩)

تعبّر رسالة بولس إلى فيلمون عن وضع مسيحيين عاشوا منذ نشأة المسيحية اختبار العبدة الافريقية الصغيرة بخيتا. واللقاء مع المسيح لم يهدف إلى تغيير العالم على مثال ثورة سبارتاكوس أو بركوبا، بل بالرجاء الذي كان أقوى من العبودية، فغيّر العالم من الداخل. «هذا ما جاء جديداً في رسالة القدّيس بولس إلى فيلمون. إنها رسالة جد شخصيّة كتبها بولس في سجنه وسلّمها إلى العبد الهارب أونازيم ليوصلها إلى السيّد فيلمون بالذات. يردّ بولس العبد إلى سيّده من حيث هرب ويردّه لا بأمر بل بصلاة: «أريد أن أسألك شيئاً بخصوص ولدي الذي، في سجني منحته حياة المسيح... أردّه إليك هذا الذي يؤلّف جرءاً منّي... إن كان قد ابتعد عنك لزمن، فذلك لكي تعود وتجده نهائيا، لا كعبد، لكن أفضل من عبد، كأخ حبيب» (فيلمون ١٠: ١٦). الناس الذين، بحسب فئاتهم الاجتماعية، تقوم بينهم علاقات أسياد وعبيد، بصفتهم أعضاء في الكنيسة الواحدة، أصبحوا إخوة وأخوات بعضهم لبعض».

ثمّ يستشهد قداسة البابا بآية من الرسالة إلى العبرانيين (١١: ١) حيث نجد شبه تحديد للإيمان المرتبط بالرجاء: «الإيمان هو جوهر الحقائق المرجوة والبرهان عن الحقائق التي لا تُرى». ليس الإيمان انجذاباً شخصيّاً نحو الخيور الآتية فحسب، وهي لا تزال خفيّة؛ إنّه يعطينا شيئاً من الواقع المنتظر. والحقيقة الحاضرة هي لنا «برهان» على الخيور التي لا نراها حتى الآن.

في عبرانيين ١٠: ٣٤ نجد نوعين من الأمور الجوهرية في الحياة: «خيرات هذا العالم» و«الخيرات الأبدية». تقبّل المسيحيون المضطهدون أن تُنهب أموالهم، عالمين أنّ لهم ثروة أفضل لا تزول. لقد ظهر هذا «الجوهر الجديد» بنوع خاص في التجرّد الهامّ بدءاً برهبان الزمان الأول حتى فرنسيس الأسيزي وبالبعض من معاصرينا الذين، حبّا بالمسيح، تركوا كلّ شيء لكي يحملوا للناس الإيمان ومحبّة المسيح ولكي يساعدوا المتألّمين في جسدهم وروحهم. هنا

ظهر «الجوهر» الجديد حقاً.

الحياة الأبدية – ما هي؟ (١٠ – ١٢)

في بداية سرّ العماد يسأل الكاهن الوالدين عن اسم الطفل ومن ثمّ ماذا يطلبان من الكنيسة. الجواب: «الإيمان». ويتابع: «وماذا يعطي الإيمان؟». يجيب الوالدان: «الحياة الأبدية». فالإيمان هو جوهر الرجاء بالحياة الأبدية. يعلّق قداسته على الأمر قائلاً: «قد يكون هناك أناس، اليوم، يرفضون الإيمان فقط لأنّ الحياة الأبدية لا تبدو لهم شيئاً مرغوباً فيه. لا يريدون مطلقاً الحياة الأبدية، بل الحياة الحاضرة. ولكن ما هي الحياة في الواقع؟ يكتب أغوسطينوس يوماً: في العمق، نريد شيئاً واحداً – «الحياة السعيدة»... وإن نظرنا بطريقة أفضل، لا نعلم حقّاً في النهاية ما نريد بدقّة. في داخلنا، إذا صحّ التعبير «جهل عالم». إذن عبارة «الحياة الأبدية» تبحث عن اسم تعطيه لهذه الحقيقة المعروفة والمجهولة. يعبّر يسوع عن ذلك في إنجيل يوحنا: «سوف أراكم وتفرح قلوبكم؛ ولا أحد يقدر أن ينزع منكم فرحكم» (١٦: ٢٢).

هل الرجاء المسيحيّ أنانيّ؟ (١٣ – ١٥)

بالطبع لا، إذ انّ تعليم الكتاب المقدّس وتعليم آباء الكنيسة يثبت أنّ الخطيئة هي هدم لوحدة الجنس البشري، والفداء إحياء للوحدة. في تفسيره للمزمور ١٤٤ (١٤٣) :بعد ذكر الآية «طوبى للشعب الّذي سيّده الله»، يضيف أغسطينوس: «لكي نصبح أعضاء في هذا الشعب ولكي نستطيع أن نعيش (...) مع الله إلى الأبد». يعطي قداسة البابا مثلاً من الحياة الرهبانية في العصور الوسيطة، حيث كانت تعتبر مثل «هروب من العالم». ولكن القدّيس برنار دي كلارفو الذي أدخل الكثير من الشباب إلى الأديرة، كان يعتبر الحياة الرهبانية موجّهة للكنيسة جمعاء، بل لكلّ البشريّة، إذ كان يطبّق كلام روفان المنحول: «الجنس البشري يعيش بفضل بعض الأشخاص، الذين لو لم يكونوا موجودين لهلك العالم».

تحوّل الإيمان – الرجاء في الأزمنة الحديثة (١٦ – ٢٣)

يبدأ هذا التحوّل في العصر الحديث مع مقولة تطابق العلم والتطبيق، ليس فقط في الطبيعة بل أيضاً في اللاهوت. هذا التطابق الجديد بين العلم والتطبيق يعني أنّ التسلّط على الخليقة، الذي أعطاه الله للإنسان وفُقد بالخطيئة، قد أُعيد إلى نصابه.

نحن أمام عبور مزهل: «حتى الآن، استعادة الإنسان ما فقد في إقصائه من الفردوس

الأرضي كانت منتظرة عن طريق الإيمان بيسوع المسيح وفي هذا كانوا يرون «الفداء». أمّا الآن، فهذا «الفداء» واستعادة الفردوس الأرضي المفقود، لم يعد منتظراً من قِبل الإيمان بل من العلاقة التي لم يتمّ بعد تحقيقها بين العلم والتطبيق. هذا لا يعني أنّ الإيمان قد أُنكر ببساطة؛ لكنه انتقل بالأحرى إلى مستوى ثانٍ، المستوى الخاصّ المحض والخارج عن الأرض». هذه هي أزمة الرجاء المسيحي، ذلك أنّ الإيمان صار أيماناً في التطوّر، وفي قلب هذا التطوّر مقولتان: العقل والحريّة. بحسب هذه المبادئ قامت أولاً الثورة الفرنسية وبعدها الثورة الشيوعية.

يدلّ الواقع التاريخي أنّ التطوّر لا يصل بالبشرية إلى الخلاص. «بدون أي شكّ يعطي التقدّم إمكانيات جديدة للخير ولكنّه يفتح أيضاً إمكانيات سحيقة للشرّ – إمكانيات لم تكن سابقاً. إذا لم يرافق التقدّم التقني تقدّم في تربية الإنسان الأخلاقية، في نموّ الإنسان الداخلي (أفسس ٣: ١٦؛ ٢قورنتس ٤: ١٦)، فهذا ليس تقدّماً؛ إنّه تهديد للإنسان وللعالم».

وجه الرجاء المسيحي الحقيقي (٢٤ – ٣١)

يبدأ قداسة البابا هذا الجزء من الرسالة بطرح السؤال: ماذا يمكننا أن نرجو؟ وماذا لا يمكننا أن نرجو؟

لا يمكن أن نبني الرجاء على الهيكليات، أي من يعد بعالم أفضل يبقى على الدوام وبدون توقّف، يعطي وعداً كاذباً. إنّه يجهل الحريّة البشريّة. إنّ الهيكليات الصالحة تساعد لكنّها وحدها لا تكفي. فرنسيس باكون وأتباع تيّار الفكر الحديث الذي أوجده، عندما يعتبرون أنّ الإنسان يُفتدى بالعلم، يخطأون. إنّهم يطلبون من العلم أكثر ممّا يمكنه أن يعطي؛ إنه نوع من الرجاء الكاذب.

من يفتدي الإنسان ليس العلم، بل «المحبة»، محبّة الله التي في المسيح (روما ٨: ٣٨ – ٣٩). بهذا المعنى، صحيح أنّ من لا يعرف الله، وإن استطاع أن ينعم بأنواع عديدة من الرجاء، هو في العمق بدون رجاء، بدون الرجاء الكبير الذي يسند كل موجود (افسس ٢: ١٢). من مسّه الحبّ يبدأ بتفهّم ما هي «الحياة» في عمقها. يبدأ بتفهّم معنى كلمة رجاء التي وجدناها في طقس العماد: من الإيمان «انتظر الحياة الأبدية». والحياة الأبدية هي «أن يعرفوك أنت الإله الواحد الحقيقي ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح» (يوحنا ١٧: ٣).

«أماكن» التنشئة والتدريب على الرجاء

أولاً: الصلاة كمدرسة للرجاء (٣٢ – ٣٤)

أول مكان أساسي للتنشئة على الرجاء هي الصلاة. إن لم يعد هناك أحد يسمعني،

فالله لا يزال يسمعني. هنا يعطي البابا مثلاً من حياة الكاردينال نغويان فان توان الذي عاش ثلاث عشرة سنة في السجن، ومنها تسعة سنين في «عزلة»، والذي ترك كتاباً صغيراً ثميناً «صلوات الرجاء».

وينتقل إلى مثل من عظات القدّيس أغسطينوس، الذي يعطي تحديداً رائعاً للصلاة كتدريب على الشوق، الشوق إلى الله، الذي يتطلّب عملية تطهير داخلي تجعلنا نستحقّ الله، وبالتالي الاتحاد بالناس. في الصلاة، يجب أن يتعلّم الإنسان ما يستطيع حقّا أن يطلب من الله – أي ما هو أهلاً بالله – يجب أن يتعلّم أنّه لا يمكن أن يصلّي ضد القريب. يجب أن يتعلّم أنّه لا يستطيع أن يطلب أشياء سطحية وسهلة يرغب فيها الآن – الرجاء الصغير الكاذب الذي يقود بعيداً عن الله.

لكي تنمي الصلاة هذه القوّة المطهّرة، يجب، من جهة، أن تكون شخصيّة جدّاً أي مقابلة بيني وبين الله، الإله الحيّ. ومن جهة ثانية، مع ذلك، يجب أن تكون دائماً منقادة ومنوّرة بصلوات الكنيسة الكبرى والقدّيسين.

ثانياً: نعمل ونتألّم كأمكنة للتنشئة على الرجاء (٣٥ – ٤٠)

كل عمل إنساني جدّي وصحيح هو رجاء بالفعل. بالتزامنا، نقدّم مساهمتنا لكي يصبح العالم أكثر إضاءة ولو قليلاً، وأكثر إنسانيّة ولو قليلاً؛ هكذا تنفتح الأبواب على المستقبل. هذا لا يعني أنّنا نستطيع أن نبني ملكوت الله بقوانا الشخصيّة. ملكوت الله هو عطيّة. ولكن يبقى صحيحاً أن عملنا ليس بدون أهميّة أمام الله كما أنّه ليس بدون أهميّة لمسيرة التاريخ.

كالعمل، فالألم هو أيضاً جزء من الحياة الإنسانية. إنّه ينتج، من جهة، من محدوديتنا ومن جهة ثانية من مجموعة الأخطاء التي، على مدى التاريخ، تكدّست ولا تزال اليوم تزداد بدون توقّف. يجب طبعاً فعل كل شيء للتخفيف من الألم. إنّما إزالته تماماً من العالم ليست من إمكانياتنا – وذلك فقط لأنّنا غير قادرين أن نتخلّص من محدوديتنا ولا يستطيع أحد منّا أن يزيل قوى الشر والخطيئة التي ـ كما نرى – هي دائماً نبع الألم. يمكننا إذا محاولة وضع حدّ للألم ومقاومته، لكن لا نستطيع إزالته. ما يشفي الإنسان ليس تلافي الألم ولا الهروب أمام الوجع، بل إمكانية قبول المحن وبلوغ النضج بواسطتها، وإيجاد معنى بالاتحاد بالمسيح الذي تألّم بحب لا متناه.

مقياسٍ الإنسانيّة يُحدّد أصلاً بعلاقته بالألم والمتألّمين. المجتمع الذي لا يتوصّل إلي احتمال المتألّمين والذي ليس قادراً على المساهمة، بالشفقة، إلى أن يجعل الألم موضوع مشاركة

ومقبولاً داخليّاً، هو مجتمع قاس وغير إنساني. إذا كانت رفاهيتي وكمالي هما أهمّ من الحقيقة والعدالة، عندئذ يتغلّب تسلّطٌ الأقوى، عندئذ يملك العنف والكذب.

نتألّم مع الغير. نتألّم لأجل الغير. نتألّم حبّاً بالحقيقة والعدالة؛ نتألّم بسبب الحبّ حتى نصبح أناساً يحيون حقاً. هذه عناصر أساسيّة للإنسانيّة؛ إن أهملناها هدمنا الإنسان ذاته.

ثالثاً: الدينونة كمكان للتدرّب والتمرّن على الرجاء (٤١ – ٤٨)

في قانون الإيمان نعترف بالمجيء الثاني للمسيح: «سوف يأتي بالمجد ليدين الأحياء والأموات». أثّرت فكرة الدينونة على المسيحيين، وأثّرت على الحياة الحاضرة كنداء لضمائرهم وكرجاء في عدالة الله. في التاريخ الحديث، توقّف الاهتمام بالدينونة الأخيرة. لا بل هناك ادّعاء من قبل عالم اليوم الذي يريد أن يخلق من ذاته عدالته، لذلك يبقى بدون رجاء. فالاعتراض على الله باسم العدالة لا يفيد شيئاً. عالم بدون الله هو عالم بدون رجاء (افسس ٢ : ١٢). وحده الله قادر أن يخلق العدالة؛ والإيمان يؤكّد لنا ذلك. صورة الدينونة الأخيرة هي قبل كلّ شيء ليست صورة مُرعبة بل صورة رجاء: ويمكننا القول الصورة الحاسمة للرجاء. إنّها صورة لا تدعو إلى الخوف بل إلى المسؤولية. الله عادل ولكن عدالته مقرونة بالنعمة التي تجلّت بيسوع المصلوب والقائم من الموت. ومن ثمّ ينتقل قداسة البابا إلى موضوع «المطهر» و«الجحيم». مع الموت يصبح اختيار الحياة الذي أقرّه الإنسان نهائياً، حياته أمام الديّان. أمّا الصلاة من أجل الموتى تعني أنّ هناك حالة وسيطة ندعوها المطهر. بفضل الإفخارستيا والصلاة والإحسان، «الراحة والعذوبة» يمكن منحهما للموتى. «لا أحد يحيا وحده، لا أحد يخطئ وحده، لا أحد يخلص وحده ... رجاؤنا هو دائماً في الأساس رجاء للآخرين؛ وهكذا فقط هو رجاء لأجلنا. وبصفتنا مسيحيين، لا يجب أبداً أن نتساءل فقط: كيف يمكنني أن أخلّص ذاتي؟ علينا أن نتساءل أيضاً: ما يجب أن أعمل لكي يخلص الآخرون وأن تطلع لهم نجمة الرجاء؟ هكذا أكون قد فعلت كلّ ما في وسعي لأجل خلاصي الشخصي».

يختم قداسة البابا رسالته بذكر «مريم نجمة الرجاء (٤٩ – ٥٠)»: «السلام عليك يا نجمة البحر»، عنوان نشيد قديم في الكنيسة. في رحلة حياتنا على الأرض نحتاج إلى نجوم تدلّنا على الطريق. لا شكّ في أنّ يسوع المسيح هو النور في ذاته، الشمس التي تشرق على كلّ ظلمات التاريخ. لكن للوصول إليه، نحن بحاجة إلى أضواء قريبة. وأيّ شخص أكثر من مريم يستطيع أن يكون لنا نجمة الرجاء؟